# الشَّباب والشَّيب في شعر الطغرائي

د. ميسر سليم الشورة *

تاريخ وصول البحث: ٨/١٢/ ٢٠٢١م تاريخ قبول البحث:٢٧ /٤/٢٠٢٢م

## الملخص

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد ﷺ وعلى آله الطيبين إلى يوم الدين.

ينطلق هذا المبحث من مقولة أساسية مفادها، أنّ مرحلة الشَّباب أبهى مراحل العمر وأحبها وأمتعها، لما يتمتع به الإنسان من قوة جسمية وعنفوان، يطرح في الذات الثقة المطلقة وقدراتها، مما يجعله مقبلًا على الحياة بكل جوانبها يغترف منها ما يجلب السعادة والحياة الفضلى، والشعراء بما يمتلكون من إحساسات ومشاعر هم الأقدر على التعبير عن المراحل العمرية التي يمرون بها، فقد شكلت مفردتا الشَّباب والشَّيب هاجسًا تغلَّب على نفس الشاعر، مما جعله يقف موقفًا عدائيًا تجاه الزمن الذي أورثه الشَّيب، محاولًا التغلب عليه باستذكار محطات العمر المفعمة بالمرح والسرور، وظف الطغرائي هذهِ الثنائية الضدية في شعره مقارنًا بينهما ومتمنيًا الرجوع لأيامه، ومعاتبًا الزمن بما فعل وبما آل إليه من ضعفٍ في الجسد والروح، على الرغم بأنه لم يعمّر طويلًا.

**مصطلحات مفتاحية:** الشَّباب، الشَّيب، الثنائية، العمر.

*أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم، جامعة العلوم الاسلامية العالمية.

## Youth and Old Age in the Poetry of Al-Tughra'i


### Abstract

Praise be to Allah Lord of the world, and peace be upon Mohammad the master of the messengers of God, and his relatives until the day of resurrection.

This research stems from a basic saying that the stage of youth is the most splendid, most beloved and most enjoyable stage of life, because of the physical strength and vigor that a person enjoys, that presents in the self absolute confidence and its capabilities, which makes him approach life in all its aspects, extracting from it what brings happiness and a better life. Poets, with their feelings are the most capable of expressing the life stages that they go through. The terms youth and gray hair constituted an obsession that overcame the poet's soul, which made him take a hostile stance towards the time that gray hair inherited, trying to overcome it by recalling life stations full of fun and pleasure. Al-Tughra'i employed this opposite duality in his poetry, comparing them and wishing to return to his days, and blaming time for what he had done and the weakness of body and spirit that he had, although he did not live long.


**Keywords:** Youth, Gray hair, Duality, Age.

وقف الشعراء مواقف متباينة إزاء القضايا التي طُرحت في أشعارهم، فمنهم من أطال الوقوف متأملًا أدق التفاصيل في موضوعاتها، ومنهم من وقف على عجل مستلهمًا ومكررًا ما نظمه غيره من الشعراء، لكن الأمر يختلف بعض الشيء حينما تكون القضية المطروحة في أشعارهم تلامس شغاف القلوب، وتأجيج العواطف، فلا شك بأن الأدب الصادر من أعماق النفس التي عاشت التجربة بكل تفصيلاتها، هو الأدب الحقيقي الذي يحمل حقيقة الواقع ويترجم ما تحمله العواطف والمشاعر من تقلبات الذات التي تعاني وتنتظر المصير، مما يُبرز ثنائية تُقلق الذات وتُعكر صفو الخاطر ثنائية الشَّباب والشَّيب، هذه الضدية التي وقف عندها الشعراء مطولًا كلّ بطريقته ورؤيته الخاصة التي يعانيها من الداخل فيترجمها إلى مشاعر وعواطف تختلج أعماق النفس.

عبر ابن عبد ربه في عقده، بقوله: "ما بكت العرب شيئًا مثلما بكت على الشَّباب وما بلغت ما يستحقه"[١]، "والشَّباب رمز من رموز الحياة ولذتها"[٢]، لم تفترق صورة الشَّباب عن الشَّيب في الشعر، بل كانت متحدة مع بعضها، سواء تقدم الحديث عن الشَّباب باعتباره أبهى لحظات العمر، أو ركز على الشَّيب باعتباره آخر المحطات ونهايتها، أو دمج بين الفترتين باعتبار الأولى تفضي إلى الثانية. وهذا ما تأصل عند الطغرائي، في ديوانه فقد وقف مطولًا أمام هذه الثنائية التي أشغلت جلَّ الشعراء في العصور الأدبية، حيث أقلقت مضاجعهم وكدرت عيشهم، فعبروا عنها كلٌّ بطريقته التي تنسجم مع طبيعة الحياة وظروفها التي يعيشها الشاعر ورؤيته الخاصة تجاه بعض القضايا العالقة بالذات والآخر.

لم أظفر في المصادر التي تيسّر لي الاطّلاع عليها بدراسة تناولت هذه الظاهرة عند الطُغرائي، على الرغم من توفر دراسات عدة حول هذه الظاهرة في جوانب متعددة منها:

الشيب في الشعر الجاهلي أسبابه والمواقف منه وصوره المجازية، د. خليل الرفوع أيضًا تجربتا الشباب والشيخوخة في شعر عمرو من قميئة، د.شفيق الرقب، د.أحمد صالح الزعبي، شعر الشباب والشيب في القرنين الثالث والرابع الهجريين، باسم الوليدات، الشباب والشيب في الشعر الأندلسي، د.رغدة الزبون وغيرهم من الدراسات التي تناولت هذه الضدية بجوانبها المتعددة.

وهذا مما جعل هذه الدراسة متميزة ومتفردة عما سبقها من دراسات أخرى فلم يتناول الطغرائي باحثٌ في دراسة هذه الظاهرة التي ظهرت جليّة في شعره؛ لذلك آثرت دراسة شعر الشباب والشيب في شعر الطغرائي وقد اخترت محطات العمر بشقيّها مرحلة العنفوان والمرح وما تُفضي إليه هذه المرحلة بقسوتها ومرارتها ، ومرحلة الضعف والوهن حيث بان على الطغرائي ذلك قبل تخطّي المرحلة الأولى هاجسٌ خفيّ يلحّ على مخيلة الشاعر يُفقده لذة الحياة.

فالشَّباب والفتوة "قبالة الحياة والشيخوخة والضعف قبالة الموت"[٣]، ترسخت هذهِ الظاهرة الضدية في أعماق الشعراء، فتركت أثرًا موحيًا بالحزن وعمق المعاناة، لا سيما بعد تقدمهم في السن،

وشعورهم أن المفقود جدير بالرثاء، وجدير بأن يبكي عليه، فلم يعد من سبيل إلى استرجاعه، إلا بتذكر لحظاته الجميلة في مراحل العمر الأولى.

**المبحث الأول: الطغرائي في سطور:**

هو أبو اسماعيل مؤيد الدين الحسين بن علي بن عبدالصمد المشهور بالطغرائي، ولد عام ٤٥٣هـ/١٠٦١م، في حي من أصبهان في أسرة من ولد أبي الأسود الدين الحسين بن علي بن عبدالصمد المشهور بالطغرائي، ولد عام ٤٥٣هـ/١٠٦١م في حي من اصبهان في أسرة من ولد أبي الأسود الدؤلي(٤).

وقد ألمّ بمعارف عصره، وقال الشعر، وأحس في نفسه طماحًا إلى المناصب، فانخرط في سلك الكتّاب يتقرب من المتنفذين، والوزارة.

نال رغد العيش في كنف السلاطين، حتى أصبح نائبًا في ديوان الطغراء في وزارة الخطير، فكان يطمح ويسعى إلى الوزارة، ورأى في نفسه الفضل والعلم والخبرة مما يؤهله إلى ما يصبو إليه. لكن الوشاة لم يتركوا له صفاء العيش والأمن والاستقرار، فأفسدوا الودَّ، وعكروا صفو الحياة، فغيروا عليه قلب السلطان، وحطّوا من مكانته ونفوذه، ولقد بات في همٍّ وقلقٍ وبين إقدام وإحجام، خسر الديوان في الوقت الذي كان يحدّث نفسه للوزارة، سنة ٥٠٥هـ، ترك ذلك غصة في قلب الطغرائي، ثم عزم الهجرة ورحل إلى أصفهان، حيث أمضى مدة معتزلًا ومنصرفًا إلى الكيمياء والتأليف.

ثم عاد إلى ولاية الطغراء بأصبهان سنة ٥٠٩هـ، وفي عام ٥١٠هـ رزق عليا، ففرح وبكى وشكا من هنا أحسَّ الطغرائي بالشيخوخة، وبدأ يتوجس ويتلمس أبعادها، فظهر حرص الآباء الذي يتخلله الخوف والهزيمة أمام عتبات السنين وأثارها، حيث تبدو ملامح التشبث بالحياة واسترجاع لحظات العمر الأولى.

لكن النهاية كانت مؤلمة في ملاقاة حتفه، فقد رُمي بالإلحاد، فقال الشهاب أسعد وكان طغرائيًا في ذلك الوقت نيابة عن النصر أخي كمال الدين: "هذا الرجل ملحد"، فقال الوزير: "من يكن ملحدًا يستحق أن يقتل"، وقد أقام أقوامًا فشهدوا عند السلطان محمود أن الطغرائي زنديق وأنه لا يتدين بدين الإسلام فقال السلطان: "قد ثبت عندي فساد دينه واعتقاده"، وأمر بقتله، فقتل بين يديه صبرًا في ربيع الأول من عام ٥١٥هـ، وكانت وزارته سنة وشهرًا، وقد جاوز الستين سنه.

**●المسوغات النفسية لرثاء الشَّباب عند الطغرائي:**

قد تتعدد المسوغات التي تسهم في تشكيل الخلفية النفسية لرثاء الشَّباب عند الشعراء، لكن الطغرائي يقف على مسوغين ربما كانا لهما الأثر الأكبر في رسم معالم الصورة الحزينة في ذاكرته قبل أوانه، فما تعرض له من نكبات وهزات من قبل الوشاة، وما كان يراه في نفسه من الفضل والعلم والخبرة مما يؤهله إلى تحقيق طموحاته، لكن المعيقات أكبر من الطموح على الرغم من تحقيق بعضها، هذا بالإضافة إلى عوامل موضوعية يشترك بها البشر جميعًا، تتمثل في تأثير الزمن في حياة

الإنسان، وتبعات ذلك من ملامح نفسية وجسمية يفرضها الزمن فتتولد ثنائية الشَّباب والشَّيب، لتشكلا أهم مرحلتين مفصلتين في حياة الشاعر، إذ تُباين إحداهما الأخرى في كثير من الجوانب إن لم يكن كلّها، فحياة الإنسان في مرحلة الشَّباب تختلف اختلافًا كبيرًا عنها في مرحلة الكبر والمشيب، ففي الأولى يقبل على الحياة مخططًا لها ساعيًا لتحقيق أحلامه وذاته، لما يتمتع به من قوة وطاقة جسيمة وعقلية تبعثان الشعور بالقوة والاستمتاع بكل ما في الحياة من مباهج ومتع، فيحدوها الأمل الغالب على الذات في خضم الحياة، لتنتصر روح الشَّباب التي يرافقها الزهو وحب التملك وكينونة الأنا التي تصدح إلى تحقيق الذات وإبراز ما لديها من إمكانات وطاقات، فهي من أجمل محطات العمر التي يحياها الإنسان، ومن أنسب الأوقات التي يبحث فيها عن كل ما يجلب له السعادة والرضا والمتعة، كما تعدُّ من أجمل محطات الحياة وأحبّها إلى النفس إلى درجة أن الإنسان يتمنّى لو أنها لا تنتهي وألا يغادرها".(٥)

ومما يؤكد جمالية هذهِ المرحلة وتشبث الإنسان بها، بأن الله ﷻ قد ذكر ذلك في محكم تنزيله وكرّم بني أدم بأن يدخل الجنة شبابًا، وهذا خير دليل على أهمية هذهِ المرحلة من عمر الإنسان. حيث قال الحبيب المصطفى ﷺ: "أهل الجنة شباب جرد مرد كحل، لا يفني شبابهم، ولا تبلى ثيابهم".(٦)

تشكل هذه المرحلة من عمر الإنسان نقطة الانطلاق نحو الحياة، وتحقيق الذات. ومن أجمل محطّات الحياة وأحبّها إلى النّفس، من هنا كانت الدعوة إلى استغلال هذهِ الفترة من العمر لأهميتها، والتوجيه السليم الذي يقود إلى الخير والفلاح، ونظرًا لأهميتها جعل الله ﷻ الحساب عليها من أول ما يسأل عنه العبد، ذكر ذلك الرسول ﷺ: "اغتنم خمسًا قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك".(٧)

ولما كانت مرحلة الشَّباب أهم مراحل العمر وأحبها وأمتعها، لما يتمتع به الإنسان من قوة جسيمة وعنفوان يطرح في الذات الثقة المطلقة بالنفس وقدراتها، مما يجعله مقبلًا على الحياة بكل جوانبها يغترف بكل حواسه ما يجلب له السعادة والحياة الفضلى فيرى العالم من حوله بمنظار الفتوة الذي يضفي أبهى الألوان وأجملها، لذا تتباين الرؤى في محطات العمر، كما أن الاهتمامات تختلف من عمر إلى آخر، لأن التركيبة الداخلية للإنسان تختلف وتتباين من فترة إلى أخرى.

ما يؤنس البارحة قد يوحش اليوم، وأولوية اليوم قد تكون في البارحة في عداد المفقود الذي لم ينظر له، لذا يقف الإنسان مطولًا أمام هذه الثنائية ليرصد الماضي في عين الحاضر، فيبدأ بالمقارنات والوقوف على أجمل اللحظات في ماضيها يعيشها في خضم الحاضر الذي يرفضه دون أن يصرّح بذلك، لكنه يكثر من استرجاع ماضيه دون أن يلتفت إلى حاضره، لأن ذلك يجلب السعادة إلى قلبه فيحاول جاهدًا أن يعيش في عتبات الماضي المؤنس إلى روحه التي تتوق إليه بكل ما يحمله من مشاعر وذكرياته، وتبدأ الذات الإنسانية تشعر بفقدان أهميتها في الحياة، ويؤدي الضعف الجسمي والنفسي

في هذهِ المرحلة إلى تولدّ مشاعر سلبية تجعل الإنسان يشعر "بدنو أجله والإحساس بقرب النهاية والخوف والقلق على ما تبقى من العمر والخوف من المرض ومن الوحدة والعزلة، تجدر الإشارة إلى أن هذهِ الدلالات ليست هي فقط التي ترافق فترة المشيب، بل هناك دلالات إيجابية يعيشها أبناء هذهِ المرحلة ويُنظر لهم بعين الاحترام والوقار والهيبة والخبرة في الحياة التي تنعكس على حياتهم وتعاملهم مع الآخر.

وهذا يعني بأن مرحلة المشيب تتفاوت من شخص إلى آخر فبعضهم يعيشها مرحلة لا بدَّ منها فيتأقلم معها ويضفي عليها السعادة والرضا، ويجلُّ ذاته كما يجلَّه الآخر؛ لمسيرته الطويلة في خضم الحياة، مما يجعله أنموذجًا يحتذيه المقبلون على الحياة وليتهلوا من خبرته وحكمته، وامتثاله لأوامر الله سبحانه وتعالى، فقد عبر جلَّ وعلا في محكم تنزيله في﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف:١٥].

فقد خصّ الله ورسوله هذه المرحلة بعين الرعاية والاهتمام من قبل المجتمع فإجلالهم وتوقيرهم واجب اجتماعي يقتضيه الدين الإسلامي بعد مسيرةٍ حافلةٍ بالعمل والعطاء، فيجب أن يعي الإنسان في هذهِ المرحلة القيمة الحقيقية التي يتمتع بها فلا بد أن يتصالح مع ذاته ليبني علاقة الرضا والانقياد إلى أوامر الخالق حيث يُنظر إليه بأنه قدوةٌ يُحتذى؛ لذلك الرقابة الذاتية واجب تقتضيه المرحلة التي يعيشها.

وانطلاقًا مما تقدم سندرس هاتين المرحلتين (الشَّباب والمشّيب) في شعر الطغرائي:

**أولًا: مرحلة الشَّباب.**

عبَّر الطغرائي عن ثنائية (الشَّباب/ المشّيب) في شعره بقصائد ومقطوعات وبعض الأبيات التي استهل بعض قصائده في أغراض أخرى في ديوانه ، فقد نقل لَنا الحالة الشعورية والإحساس العميق الذي كان في أعماقه وقد تكلله الألم والحسرة على ماضٍ، قد تغيرت ملامحه في نفس الشاعر كما بدا للناظر المتأمل فيه.

حيث يقول معبرًا عن ذلك: واصفًا احتماله وخلقه[٨] (الكامل)

*فُجِعَتْ بها نفسِي وأيامُ الفتىنَسَماتُ أرواحٍ لهنَّ هُبوبُ*
*واهًا لأيامٍ لهوتُ بطيبِهاغُصْنُ الصِّبَا ما بينهنَّ رَطِيبُ*
*فإذا اعتزينَ فإنهنَّ شواغِلٌوإذا انقضينَ فإنهنَّ كُروبُ*

يتوجد الطغرائي على أيام الفتى ويصفها بنسمات الروح التي لها هبوب يساند الذات ويعللها، لكنه ينتقي بعض ألفاظه التي تبعث الحسرة والأسى، وتنقل العدوى من المبدع للمتلقي، فيعيشها تجربة شعورية يدقق في تفاصيلها، فتحمل في طياتها ماضيًا مُحمّلًا بالذكريات الجميلة ومواطن

الصبا والشَّباب المنصرم، وذلك اتضح من لفظة (واهًا) التي توحي بالحزن والتحسر على ماضٍ جميلٍ، في لحظة تختلط المشاعر الحاضرة بالماضية حيث تتغلب مشاعر الماضي على الحاضر، فيرنو لها الشاعر ويستذكرها كلما هبت نسائم الذكريات، مما يجعله يعيش فترتين متداخلتين، فيعلل النفس بماضيها المجيد ويبعث فيها الأمل لما كان يتمتع به في صباه: معبرًا عن ذلك في قوله: [٩] (الكامل)

*سَلْ بي بناتِ الدهرِ فهي خبيرةٌ آني عن المرعَى الذميمِ عَزُوبُ*

ماضٍ تخبره بنات الدهر، فهي التي تجيب عما كان وحينما كانت تزاحمه في ماضيه، فالشاعر متيقن من إجابة بنات الدهر هذه المصائب التي كانت قد اعترضت طريقه، بأنه عزوب عن المرعى الذميم.

كما يتضح إيمان الشاعر بحقيقة مفادها، أن حب البقاء طبيعة قد جُبل عليها الإنسان في قوله: [١٠] (الكامل)

*حبُّ البقاءِ طبيعةٌ مجبولةٌ وهل البقاءُ وقدرُه محسوبُ*

*ولكَمْ حياةٍ دونَها جُرَعُ الرَّدَى ضَربٌ مشوبٌ والحياةُ ضُروبُ*

فالأبيات تكشف عن إيمان الشاعر المطلق بحب البقاء والتعلق به، لكنه يدرك بأن الأمر محسوم لا بقاء لأحد.

كما يقدم لنا الطغرائي في رثائه لشبابه جملة من الدلالات والمعاني التي تندرج تحتها دلالات ومعانٍ جزئية، تظهر من خلال التحسّر على الشَّباب المنعدم، وموقف الشاعر من هذه المرحلة التي تبعث الفرح والسرور دون سبب، ويربط ذلك بحياة الفتوة التي يشوبها بعض الممارسات التي تخرج عن نطاق المعقول في بعض الأحيان قبل ربط السعادة والسرور بابنة العنب، حيث لا مجال لها إلا بها إذا انقضى الشَّباب، لأنه هو مبعث الفرح، يعبر عن ذلك في قوله: [١١] المنسرح

*قد كان لي في شبيبتي فَرَحٌ يحدُثُ لي بغتةً بلا سببِ*

*فمذ تولَّى الصِّبَا تبيَّنَ لي أن الصِّبَا كان موجبَ الطربِ*

*حظٌّ تولَّى فلستُ أُدرِكُهُ إلَّا بعونٍ من ابنةِ العنَبِ*

فالشاعر يعلم أن حلاوة عيشه لصيقة بحلاوة الشَّباب وعنفوانه، فإن ولّى الشَّباب ولت معه لذة العيش لذلك يحاول أن يجد بديلًا لذلك، فيسترجع ذكرياته فيه مكثرًا من الألفاظ الدالة على الشّباب ومتعلقاته (الشباب، السرور، الغنى، الطرب، الصبا، الهوى، الفتى، الفرح والكأس) وهذا يعني أن الشاعر يقف موقف المعجب بماضيه، ويعيش على ذكرياته عندما كانت الحياة تحلو له.

يقول في مقطوعة أنشأها في آخر عهده [١٢] (الكامل)

*كان الشَّباب هو السرورَ فرمتُهُ إذ فاتَ في الدنيا فعزَّ المطلبُ*

*طَرَبُ الشَّباب هو المؤثَّرُ لا الغِنَى والكأسُ والوترُ الفصيحُ المُعْجِبُ*

*أولا فهذِي كلُّها موجودةٌإلا الشَّباب فما لنا لا نطرَبُ*

لم تكن أسباب المعيشة كالغنى والكأس وغيرها لترضي وحدها عنفوان الشاعر، فالمعيشة والطرب مقترنة بشبابه وعنفوانه في مرحلة الفتوة.

"فالشَّباب رمز من رموز الحياة ولذتها".[١٣]

ما يؤلم الشاعر ويقلق مضجعه، أن الشَّباب إلى انتهاء، ولن يفلت الإنسان من قدر الأيام والليالي التي تثقل كاهله، وتغير حياته إلى صوبٍ آخر لا يكون قد عدَّ العدة له، مما يجعله يتأسى على شبابه ويستذكر أيامه بلوعة وحرقة، فتجرّعه الأيام أذى لم يكن بحسبانه كما وأنّ ذكر المرأة عادة ألفها كل الشعراء القدامى، اقترن شعر الشّيب بالحديث عن المرأة، حيث مثّلت عاملًا أساسيًا في شعر الشّيب والصِبا.

يعبر عن ذلك في مقطوعةٍ:[١٤] المجتث:

*أفنَى الليالي شبابيوغادرْتني لما بي*
*وخلَّفتْني وحيدًاوأسرعتْ في صِحابي*
*ومسَّني من أذاهَاما لم يكنْ في حسِابي*
*ولم تدعْ ليَ رأيًافي صَبْوةٍ أوتَصابِي*
لا لذّةٌ في سَمَاعٍولا هوىً في شرابِ
ولا لُبانةُ عيشٍعند الفتاةِ الكَعَابِ

يختلف الشعراء في نظراتهم إلى أقانيم الزمان الثلاثة (الماضي والحاضر والمستقبل) فهم متفقون على أن الزمان يعدو والناس يعدون معه إلى حين تنفد أعمارهم، فالزمن باقٍ والناس ماضون فإذا ما عمّر الإنسان فإنه سيحمل أعباء شيخوخته، ويسير بين أناس غرباء عن زمانه، فالليالي تدور والشمس تكرر طلوعها وغروبها، فإذا القريب بعيد، والبعيد قريب.[١٥] يصوّر تصدّع قواه، فالزمن قوة ضاربة تقف للإنسان بالمرصاد، وتصوّب سهام المنون نحوه، فهي معادية لمظاهر الحياة كلِّها.

استخدم الشاعر أساليب عدة في بيان الصراع بين المتضادين الشَّيب والشَّباب، يبغض المرآة لأنها تطالعه بالشَّيب وكأنه يريد أن يكون في غفلة عن رؤية الشَّيب الذي يكدر صفو الخاطر ويدق ناقوس النهاية الحتمية لكل إنسان، لكنه سرعان ما يأتي بما هو محبب إليه ما يذكّره في شبابه وعنفوانه، ومعبرًا عن ذلك في قوله:[١٦] الطويل

*لقد بغَّضَ المرآةَ عنديَ أنَّها تطالعُني بالشَّيب من كل جانبِ*
*كما حَبَّب المِقراضَ عندي أنَّهُيُطَرِّي شبابي في عيونِ الحبائبِ*

لم يكن الشعور الأليم بتقدم العمر في وقته فحسب، بل كان هاجسًا ينتاب الشاعر في صباه قبل أن يتقدمه العمر، فالإحساس موجود عند الإنسان منذ نعومة أظفاره، بأن هناك مرحلة سيفضي إليها

نتائجها غير مرغوبة ومحمودة، لذا نرى الطغرائي يُنصّب نوب الليالي حكمًا بينه وبين المشيب على الرغم من صغر سنه، وذلك يؤكد قلق الشاعر المسبق وتخوفه من هذهِ المرحلة العمرية، فيقول:[١٧]

الوافر

*تحاكَمْنَا إلى نُوَبِ الليالي على رغمِ الصِّبَا أنا والمشيبُ*

*فقد شهدتْ له بالزور بِيضٌ طوالِعُ في عِذاري لا تغيبُ*

*وقام بنُصرتي والدَّبّ عَنّي سِنِيَّ وعهدُ مولديَ القريبُ*

ومن الموضوعات التي عبر عنها الطَغَرائي مكانة مرحلة الشّباب عنده، وإحساسه بما فيها من مقومات الرشاقة والجمال وكل ما تصبو إليه النفس وتهواه. واتخذ ذلك سبيلًا إلى الغزل وقبول الحسان له وغرامه لهنَّ، يربط الشعراء الغرام بمرحلة الشّباب لما لها من قداسة وأهمية في نفس الشاعر، والمرأة سواء، فهو يعتقد بأن المرأة ترفضه إذ ما اشتعل الرأس شيبًا، فهو حريص كل الحرص على أن يخفي ذلك عنها، ليبقى في نظرها ما زال يتمتع في شبابه وعنفوانه، فالحديث عن الشّباب كان بمثابة هروب من الواقع المؤلم إلى جوّ مفعم بالذكريات الجميلة.

يقول الطُغرائي: الطويل[١٨]

*وكنتُ أُراني مفلتًا شَرَكَ الهَوى فقد صادني سحرُ العيونِ النوافثِ*

*وأسمعني داعي الغَرامِ نِداءَهُ فقمتُ إليه مسرعًا غيرَ لابِثِ*

*فما صفقتي في البيعِ صفقةُ خاسرٍ ولا بيعتي للحب بيعةُ ناكثِ*

*فلا تعذلوني في غرامي بعدَما تولَّى الصِّبَا فالعَذْلُ أوَّلُ باعِثِ*

ولم يكن الشَّباب بحسنه ونضارته وما فيه من مقومات الوقوع في الحب ودواعيه والاستمتاع به فحسب، بل كان الوقت المناسب الذي يمنح الرجل المسوّغ والدافع إلى الاستمتاع بالحب وملذات الحياة الأخرى حتى وإن كان بعضها غير مقبول دينيًا واجتماعيًا،[١٩]، فالشاعر يرى بأن تُغتنم الفرص من حلال وحرام، لأن الدهر لا يبقيك على حال ولا ينام عنك.

يقول: الرجز[٢٠]

*واسرقْ من الأيامِ حظكَ من حَلالٍ أو حرامِ*

*فالدهرُ ليس ينامُ عنكَ وأنتَ عنهُ في منَامِ*

يتخلى الشاعر عن هذه المهمات حينًا آخر، عندما يتشوق إلى ملذات الحياة، فيقبل عليها، ويدعو إلى الإقبال عليها أيضًا، وكأنه يسرق لحظات السعادة الهاربة من عمر الزمن. فالحسرة على انقضاء الشَّباب ترافقها الحسرة على الانقطاع عن الملذات التي تقترن بحياة الشَّباب وتكون مسوغًا للإقبال عليها.

لإن الشيخوخة وما تجلبه معها تمثل جرحًا داخليًا في الذات والعمر الذي تمتنع عنه لذات الحياة والمشاركة في حياة الناس بحيث يلبث الإنسان ثاويًا لا يبالي بموته.[٢١]

والعرب تقول: "إن من بلغ السبعين اشتكى من غير علة".[٢٢]

لذلك يراود الشاعر دائمًا الاعتقاد بأن كل من كان بالماضي هو أعظم وأفضل مما هو عليه، فنراه يقف موقف المعجب بماضيه حيث يكون توجيه عاطفته إلى المراحل الأولى من عُمره الذي يعد بمثابة اعتزاز لهذهِ المراحل التي كان فيها شابًا قويًا، فهو يضفي العظمة على جيل السابقين الذين واكبهم خلال مراحل العمر الأولى، إنما هو في الحقيقة ذريعة نفسية لإضفاء العظمة على نفسه.[٢٣]

يقول الطَغَرائي: [٢٤] السريع

*فيمَ التجني والصّبا طِينُهُ رطبٌ فما يعيَى به الطابعُ*

*إنْ تُعْرضُوا عنّي فمِنْ دونِكُمْفي الأرض لي مضطَرَبٌ واسِعُ*

*ما من خَصاصٍ قد مَررنا بهِإلا عليهِ محجرٌ راقعُ*

*هيهاتَ أن يخفقَ لي مطلبٌ والشَّعَرُ الأسودُ لي شافعُ*

لم يكن الأمر هينًا على الشاعر، حينما يستذكر الشَّيب وما يرافقه من علامات يلحظها الشاعر ويعيشها ويعانيها وأخرى يراها الآخرون لأنها ظاهرة جلية على جسده ونفسيته مما ينعكس على تصرفاته في الحياة، فذلك يؤرّق الشاعر ويجعله ينصاع إلى ماضيه معللًا النفس بمراحل العمر الأولى، ليجلب لها الفرح والسرور لما كانت عليه، فالإنسان حينما يدرك حقيقة التقدم بالعمر يعيش في جنبات الماضي حتى يحدوه الأمل وينسجم مع الحاضر الذي ربما يعانده في سيره ومعتقداته فيزين حاضره بحلة الماضي التي يراها أبهى وأمتع المراحل، حتى يرضي الذات الرافضة للشيخوخة وآثارها.

يقف الشاعر موقفًا عدائيًا مع الزمن، فالزمن قوة ضاربة، وقد تكررت هذه الصورة عند كثير من الشعراء، فالشعور بحركة الزمن عميقًا، مما يولدّ القلق في نفس الشاعر وكأنه في انتظار مستمر يتوقعه في كل لحظة من لحظات العمر، هذا الإحساس العظيم بقوة الزمن التي تدفعه نحو الوهن والانحدار جعله يخشى على هذا الابن أن تصارعه قوة الزمن التي ثلمت جسده فالشاعر يصبو أن يطالعه وهو يتخطى مراحل العمر.

وهذا مما زاد من قلق الشاعر وتخوفه، وما جعل في ذلك مبررًا للتشبث بالحياة ومراحل الشَّباب الأولى حتى يقوى على متابعة حياة ابنه علي الذي ذكره في أبيات قائلًا: البسيط: [٢٥]

*هذا الصغيرُ الذي وافَى على كِبَريأقَرَّ عيني ولكنْ زادَ في فِكَرِي*

*وافى وقد أبقتِ الأيامُ في جَسَديثُلْمًا كثلمِ الليالي دارةَ القمرِ*

كثيرة العلامات والقرائن التي تجعل الإنسان ينتبه إلى ما وراء ذلك فيدق ناقوس الخطر في ذاته حتى ولو كان خفيّة بينه وبين نفسه دون أن يفصح عن ذلك، لكن الشعراء يتجلون في التعريض لذلك

ربما قبل مجيء الأوان، فهو يرى النتيجة الحتمية لنهاية العمر، كلما غرد بلبل أو ناح غصن رطيب تلمس علامات ربما لم تظهر بعد وتأملها، وذلك يشكل جرحًا عميقًا في نفس الشاعر، يربط من خلاله حاضره بماضيه ويعلل أحزانه بما آل إليه من وهن وحسرة وضعف، فالرفاق قد فارقوه وتركوا أجمل اللحظات وهو لاحق بهم على عجل، حقيقة لا بد منها، تتكرر مثل هذه اللهفة على الماضي الجميل في نظر الشاعر.

يعبر عن ذلك قائلًا: الكامل [٢٦]

*جارَيْتُ في مِضْمارِ عُمريَ عُصْبةً سبقُوا وها أنا خلفَهُمْ أجرِي*

*طورًا على ظهرِ الهيمِ وتارةً من فوقِ أشهبَ سابحٍ غَمْرِ*

ومن الصور التي كُثر حضورها في الشعر العربي على وجه العموم، أن الضد لا يُعرف إلى بالضد، أي أنّ من عاش مرحلة السرور والبهجة وتمتع بشبابه وشعر بما كان يمنحه إياه من نضارة ونعيم وقوة، وممارسة لمتع الحياة وإحساس بالمتعة واللذة، كان حريًّا به أن يعود إلى الشَّباب ليعلمه بما صنع المشيب.

لذا يقف شاعرنا حائرًا بين الشَّباب والنعيم أيهما ألذُّ وأنضر، بعد فقد الشَّباب يدرك بأنه النعيم الذي لا يعوّض واغتنامه أجمل الفرص.

قائلًا: (الكامل) [٢٧]

*أما الشبيبةُ والنعيمُ فإنَّني لم أدْرِ أيُّهما ألذُّ وأنضَرُ*

*حتى انقضى عصْرُ الشَّباب فبانَ لي أن الشَّباب هو النعيم الأكبرُ*

*لا يُخدعَنَ عنه فبائعُ ساعةٍ فيه بدنيانا جميعًا يخسرُ*

الشَّباب والشَّيب صفتان متلازمتان، فأحدهما مقدمة الثاني، والثاني نتيجة حتمية للأول.

١.يقول في محكم كتابه: ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ [غافر:٦٧].

وقوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤]

**مرحلة الشَّيب:**

يعد الشَّيب أحد المضامين التي وقف عندها الشعراء مطولًا، لما يحمله من دلالات توحي بأفول الحياة وانقضاء الشَّباب، على الرغم من تباين مواقف الشعراء إزاء هذا القادم الحتمي، الذي لا يقبل الإعادة بأي حال، لذا ينبعث الألم والحسرة في أنات الشاعر تجاه هذا المفقود، فالشَّيب طارئ غير مرحب به. قد حلَّ محل الشَّباب الذي شكلَّ فتوة العمر وعنفوانه، فحلوله نذير للموت لذا يبغضه الشعراء لأنه يذكرهم بالموت وقرب الأجل، مع ما يحمله من قلق وتوتر يتعمقان في إحساس

الشاعر تجاه هذا اللون الذي يصدح في مفترقه، يرتَبط بالحالة النفسية للشاعر تجاه تفصيلات كثيرة من حياته.

فقد أفقده حقوقًا كثيرة كانت مرعية له أيام الشَّباب، فليس من حقه الانسياق وراء الشَّباب وتقليدهم في مأكلهم ومشاربهم وملابسهم، وأساليبهم، ولهوهم وتصابيهم وفرحهم وآمالهم، وسوف يعاب عليه إذا انساق وراء عواطفه، فتلك مرحلة قد انقضت بكل ما تحمل من عواطف ومشاعر ولهوٍ واندفاع، هذه من العوامل التي كان لها دور كبير في بعث مشاعر الحزن في نفس الشاعر، والإحساس بوقع الزمن على وجدانه، هذه القوة العاتية التي تسيّر عجل الكون، فلا يشعر الإنسان بمروره بأطوار العمر، تأخذه لحظات العمر فلا يلقي لها بالاً حتى تنتفض فرائصه وتنبئه بالقادم غير المرغوب، فيأخذ بالًا لما آل إليه دون سابق إنذار، ثم تعتريه الحسرة والألم على ما فات، فيحاول جاهدًا التلذذ بما بقي من العمر تارة، وأخرى بالعودة إلى ما فات لعله يعلل حاضره بماضيه.

وقد صور الخالق ﷻ هذه المرحلة في كتابه العزيز: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ**﴾ [ الروم:٥٤]

فالإنسان يمر بأطوار في حياته، كما صوّرها القرآن الكريم، يبدؤها ضعيفًا، ثم يقوى، ثم يعود إلى ضعفه، ومن بين هذه الأطوار طورا الشَّباب والشَّيب اللذان يترك كل منهما بصماته على حياة الإنسان من جميع الجوانب، وقيل الشَّيب بياض الشَّعر والمشيب: دخول الرجل في حد الشَّيب من الرجال، والأشيب: المبيض الرأس.[٢٨] فقد رفض الشعراء بياض الشَّعر؛ لأنه يشكل هاجساً مخيفاً في خوالج النفس، ويبعث على القلق والحسرة على ما فات من العمر. حيث يربط الطَغرائي الفرح والسرور بأيام الصبا فمنذ ولت أيام الصبا غادره الفرح والسرور، يعبر عن ذلك في قوله:[٢٩] المنسرح

*قد كان لي في شبيبتي فَرَحٌ يحدُثُ لي بغتةً بلا سببِ*
*فمذ تولَّى الصِّبَا تبيَّنَ لي أن الصِّبَا كان موجبَ الطربِ*

كما يعبر عن ذلك في مقطوعة أخرى، يقول:[٣٠] الكامل

*كان الشَّباب هو السرورَ فرمتُهُ إذ فاتَ في الدنيا فعزَّ المطلبُ*
*طَرَبُ الشَّباب هو المؤثَّرُ لا الغنَى والكأسُ والوترُ الفصيحُ المُعْجِبُ*
*أولا فهذِي كلُّها موجودةٌ إلا الشَّباب فما لنا لا نطرَبُ*

نلمح بأن الشاعر يؤمن بحقيقة مفادها أن مرحلة الشَّباب هي أساس السرور والفرح والطرب، فما عدا هذه المرحلة موجود في كل وقت لكن الطرب والسرور لا يطرق بابه، لذا نراه يتحسر على ما فاته من حسن الشّباب ونظارة العيش، فيكثر من استرجاع الماضي وذكرياته التي تبهج النفس وتعلل الخاطر فكأنه يعيش في كينونة الماضي الجميل.

كما ويقف الطغرائي موقفًا عدائيًا مع الزمن يسلم من أذاه، فقد تسلل إليه الوهن والضعف والعجز وما خلّفه من أثارٍ لم تكن بالحسبان، يقول: [٣١] المجتث

*أفنَى الليالي شبابيوغادرْتني لما بي*
*وخلَّفتْني وحيدًاوأسرعتْ في صِحابي*
*ومسَّني من أذاهَاما لم يكنْ في حسِابي*
*ولم تدعْ ليَ رأيًافي صَبْوةٍ أو تَصابِي*

كان شعور الطغرائي بحركة الزمن عميقًا فقد ربط كثير من ظروف حياته وتقلباتها من سعادة وشقاء وخير وشر ووهن بهذه القوة، لم تكن أحداث حياته تسير على وتيرة واحدة، وهذا مما ولدّ شعورًا بالقلق فأكثر من الشكوى والتذمر والتعبير عن المخاوف التي كانت تقلق مضجعه، منها ما قاله في ابنه الأصغر عليٍّ، كان يخشى عليه بعد مفارقة الحياة لأن قرائن الموت قد بانت عليه منها الشَّيب الذي كان يشكل هاجسًا موحشًا في نفوس الشعراء، حتى بات يعيش تحت وطأة هاجس الموت. يقول:[٣٢] البسيط

*سبعٌ وخمسونَ لو مرَّتْ على حَجَرٍلبانَ تأثيرُها في صفحةِ الحَجَرِ*
*فزادَ حِرصي على الدُّنْيا وجدَّدَ ليضَنًّا بمالي وإِشفاقًا على عُمُري*
*أحنُو عليهِ وأخشى أنْ يعاجلَنِييومي ولم أَقْضِ من ترشيحهِ وطري*
*وأشتهي أن أراهُ وهو مقتبِلٌغضّ الشَّباب خضيب الوجه بالشَّعَرِ*

ما يؤلم الشاعر هو أن الشَّباب إلى انتهاء، ولن يفلت الإنسان من قدر الشيخوخة مهما طال به العمر، وهو يعلم أن شيخوخته ستجلب له شقاء وتعبًا لا طاقة به على احتمالها، في حين أن الفتوة تعني الفروسية والشجاعة وتلبية الرغبات،[٣٣] فالشاعر يتخلى عن كثير من الأفعال التي كان يفعلها في فتوته وكأنها انتهت بانتهاء مرحلة الشَّباب، يذكر ذلك في قوله: [٣٤]مجزوء الكامل

*أمَّا الشَّباب فقد تَقَضى والغَرامُ فلا غَراما*
*جاريتُ ركبانَ الصِّباحيًا وقطَّعْتُ الزِّمامَا*
*واليومَ أُبدعَ بي فلاخَلْفًا أمرُّ ولا أماما*
*وهجرتُ إِخوانَ البطَالةِ والندامَى والمُدَامَا*

تمثل الشيخوخة جرحًا داخليًا في نفس الشاعر، لأنها خطام المنية ونذير الموت،[٣٥] (٣٩). والعمر الذي يُحرم به الإنسان عن ملذات الحياة والمشاركة مع الناس، وحين سئل أحد الشيوخ عن الذي بقي منه أجاب: يسبقني من أمامي ويدركني من خلفي، وأذكر القديم وأنسى الحديث وأنعس في الملا وأسهر في الخلا وإذا قمت قربت الأرض مني وإذا قعدت تباعدت عني[٣٦]، والعرب تقول من بلغ السبعين اشتكى من غير علة.[٣٧]

ولعل ذلك يجعل المرأة غير ميالة للشيخ وهو ما يزيد احساسه بالضعف والوهن والحزن ويجرح كبريائه، ولهذا نجد الشعراء يبالغون في اقتناص اللذائذ قبل المشيب قال الطغرائي في ذلك.[٣٨] مجزوء الكامل.

*أذري على الخدَّين من فراقهمُ سجاما*
*ويسوؤُني أن لا أَلُومَ وكنتُ أكرهُ أن ألاما*
*وتركتُ وصل الغانياتِ فلا لمامَ ولا كلاما*
*وسئمتهنَّ وكنتُ أخشى قبل منهَنَّ السآما*
*وصحبتُ بعد المِرْدِ والِ فتيانِ مشيخةً كِراما*

يؤمن الشاعر بمعتقدات الإنسان العربي التي يستمدها من البيئة التي يسكنها، فالبومة والغراب نذيرا شؤم منذ القدم، فيربط الشاعر خراب العمر وإظلامه، باشتعال مفارق رأسه بالشَّيب ويربط ذلك بإيمانه بهذهِ المعتقدات، يجعل البومة تعيش فوق هاماته، على الرغم من ارتفاع الغراب عنها، فالشاعر ابن بيئته لا بد أن يستمد ألفاظه ومعانيه ومعتقداته من المحيط الذي يعيشه، يعتقد الشاعر بأن كل ما هو موجود يعانده ويعقد صلحًا مع الزمن ضده، تتكالب الموجودات بكافة أشكالها لتترك نُدبة مظلمة في نفس الشاعر، فيخرب العمر حاله حال أدوات الحياة الأخرى.

يقول في ذلك:[٣٩]الطويل

*خَبَت نارُ نَفسي بِاشتِعالِ مَفارِقِيوَأَظلَمَ لَيلي إِذ أَضاءَ شِيبُها*
*فَيا بومَةً قَد عَشَّشَت فَوقَ هامَتيعَلى الرُغمِ مِنّي حينَ طارَ غُرابُها*
*رَأَيتِ خَرابَ العُمرِ مِنّي فَزُرتِنيوَمَأواكِ مِن كُلِّ الدِيارِ خَرابُها*

تبدو صورة الشَّيب قبيحة ومنفرة حينما يلمحها في المرآة، فنراها يبغضها ولا يحبذ رؤيتها؛ لأنها تبعث في نفسه الحسرة على ما فات، فكأنه يعلل النفس بعدم رؤيتها، يقول: [٤٠] الطويل

*لقد بغَّضَ المرآةَ عنديَ أنَّها تطالعُني بالشَّيب من كل جانبِ*
*كما حَبَّبَ المِقراضَ عندي أنَّهُيُطَرِّي شبابي في عيونِ الحبائبِ*

فالشاعر يستأنس بكل ما يذكره بالشَّباب، وما فات من مرحلة الفتوة فهي أقرب للنفس وأمتع للخاطر، كل ما يذكر بالجميل فهو محبب وكل ما يذكر بالقبيح فهو مكروه.

فالمرآة مكروها، والمقراض محبب.

يعيش الشاعر الهواجس المخيفة من تقدم العمر، وهو في مرحلة الفتوة، فتطالعه المشاعر الحزينة ويرفضها بعهدي مولده القريب، وهذا دليل على الخوف المسبق لما سيؤول إليه المصير في نهاية حتمية لكل إنسان على وجه الخليقة، لذا فهو يخشى حدوث ذلك المخيف الذي يفكر به قبل أوانه، فيتحاكم هو ونوب الدهر على الرغم من فتوته وصباه، يعمد الشاعر إلى استخدام الأفعال

الماضية واستغل فيها المضي والثبات على المعنى دون تغيير؛ وذلك ليجعل المتلقي يشاركه همه وحزنه، ولا سيّما أن الشّيب من مظاهر الضعف وحيهم للشباب جعلهم يوقنون أن الشّباب ضيف سريع الرحيل.

يقول: [٤١] الوافر

*تحاكَمْنَا إلى نُوَبِ الليالي على رغمِ الصِّبَا أنا والمشيبُ*
*فقد شهِدتْ له بالزور بِيضٌ طوالِعُ في عِذاري لا تغيبُ*
*وقام بنُصرتي والذَبِّ عَنّي سِنِيَّ وعهدُ مولديَ القريبُ*
*وعدتُ وقد قضَيْنَ عليَّ جَورً الشِيبي والصِّبَا غَضٌّ قشِيبُ*
*ومن يرجِعْ إلى الحُكّامِ فيما عراهُ فهو يغنَمُ أو يَخِيبُ*

للشاعر صولات وجولات مع الزمن، يحاول أن يكبح جماحه من أجل ألا يشعر بامتداد يد الدهر له، فيصبح شيخًا كهلًا لا يقوى على تصاريف الزمان، فيحاول جاهدًا أن ينتصر لكنه يصل إلى حقيقة مفادها بأن من يغالب الدهر سيُهزم، لابد الدهر باقٍ وتارك أثاره في الخليقة لذا النصر حليفه.

يقول: [٤٢] الكامل

*بارزتُ دهري وهو قَرْني فانتضَى في السُّودِ من قَوْدَيَّ بيضَ صفائحِ*
*وجرتْ وقائعُ بيننا مشهورةٌ فاغْبَرَّ من نقعِ الطِّرادِ مسابحي*
*ناهبتُه شوطَ الجِراءِ ففاتَني جَذَعًا وقَصَّر عنه جَرْيُ القارحِ*
*ونزلتُ عن أحوى جَمومٍ سابحٍ وحملتُ بَزّي فوقَ أشهبَ رازحِ*
*يكبو بصاحبهِ ويُسلمُهُ إذا دُعِيَتْ نَزَالِ إلى العدوِّ الكاشحِ*
*هيهاتَ يسلمُ من يبارِزُ قَرْنَهُ يوم اللقاءِ على عَثُورٍ جامحِ*

**الخاتمة:**

تناولت الدّراسة ثنائية الشَّباب والشَّيب عند الطغرائي من خلال ديوانه الذي تتعدد موضوعاته الشّعرية، وكان من ضمنها هذه الثنائية الضدية التي أشغلت بال الشعراء، فوقفوا إزاءها مطوّلًا معبرين عما يختلج الخاطر تجاهها. وقد وصفت الدّراسة هذه الثنائية ببابين أحدهما تعرض لمرحلة الشباب وما يعتريها من قوة وعنفوان، عبرَّ عنها الطغرائي تعبيرًا يليق بالحياة التي كان قد عاشها، مرحلة عمرية جميلة بكل معاييرها تغنى بها وتغزل وجاشت مشاعره تجاهها كما غيره وقف عندها. وعاد إليها كلما سنحت له الفرصة في مراحله اللاحقة، والباب الثاني تحدث عن مرحلة الشَّيب وما تجلبه معها من حسرةٍ وضعفٍ في القوى الجسدية والمعنوية ناهيك عن الروحية التي تبقى متشبثة بالمراحل الأولى من الحياة، يبقى الشاعر قلقًا حتى في مقتبل العمر وكأنه ينتظر نهاية المطاف، فالشَّيب أتٍ لا محالة، يخشى توابعه وما يجره من ويلات على جسده وروحه، فتختلط المشاعر بين حنين

لماضٍ تليد وأنينٍ لحاضرٍ عنيد، تأبى هذهِ المرحلة إلا أن تعبر حتى قبل أوانها في بعض الأحيان، تجرح الخاطر وتعكر صفوه، فيبدأ الشاعر يبحث عمّا يعلل النفس ويطمّئن الروح، فيجد مرحلة الشَّباب هي الملاذ الآمن، يغترف منها ما يعزز الثقة بما آل إليه، منكرًا مرحلة الشَّيب التي تبعث السآمة والمرض والوهن.

## قائمة المصادر والمراجع:


- الترّمذي: الجامع الصّحيح، تحقيق مصطفى محسن حسين الذّهبي، دار الحديث القاهرة.
- ابن تغري بدري الأتابكيّ: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، علق عليه محمد حسين شمس الدين (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢).
- الجاحظ: البيان والتبين. تح. عبد السلام هارون، القاهرة، د.ت،
- ابن خلّكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تحقيق إحسان عباس (دار صادر، بيروت ١٩٦٨).
- الذّهبي: شمس الدّين، تاريخ الإسلام، تحقيق بشار معروف وشعيب الأرناؤوط وصالح مهدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٨م.
- رغدة الزبون: الشّباب والشّيب في الشعر الأندلسي، دراسة موضوعية نفسية، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٤٢، العدد ١، ٢٠١٥.
- زهران: حامد عبد السلام، التوجيه والإرشاد النفسي، عالم الكتب، القاهرة، ط٣، ١٩٨٥م.
- الصائغ: عبد الإله، الزمن عند الشعراء قبل الإسلام، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٢م.
- الصفدي: صلاح الدين خليل، الوافي بالوفيات، اعتناء ديدرينخ، فرائز شتاير، ط ٢، ١٩٧٠م.
- الطغرائي، الديوان، تحقيق علي جواد الطاهر ويحيى الجبوري، مطابع الدوحة الحديثة، ط ٢، ١٩٨٦م.
- ابن عبد ربه أحمد بن محمد الأندلسي، العقد الفريد، القاهرة، ط٣، ١٩٦٥م.

## الهوامش:

(١) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي ٤٦/٣، القاهرة ط٣، ١٩٦٥م.
(٢) الزمن عند الشعراء قبل الإسلام، عبدالإله الصائغ: ص ١٤٢.
(٣) الزمن عند الشعراء قبل الإسلام، عبدالإله الصائغ: ص ١٤٢.
(٤) ينظر الديوان: ص ١٠، ديوان الطغرائي، تحقيق الدكتور علي جواد الطاهر ويحيى الجبوري، مطابع الدوحة الحديثة، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ينظر ترجمة الطغرائي في معجم الأدباء: ١٠ /٥٦ – ٧٩، وفيات الأعيان: ٢/ ١٨٥ – ١٩٠، تاريخ الإسلام:٢١٣/٤، الوافي بالوفيات:١٤/ ٤٣١ – ٤٣٩، النجوم الزاهرة: ٢٢٠/٥، شذرات الذهب: ٤١/٤ – ٤٣، مرآة الزمان: ٨/ ٥٦ – ٥٨.
(٥) الشَّباب والشَّيب في الشعر الأندلسي، دراسة موضوعية نفسية، رغدة الزبون: (٢٠٢).
(٦) الترمذي، الجزء الرابع، ص ٣٩٤.
(٧) المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: محمد أمين، مكتبة المطبوعات الإسلامية، بيروت، ٣٠٦/٤.
(٨) الديوان: ص ٦٤.
(٩) المصدر نفسه، ص ٦٥.
(١٠) المصدر نفسه، ص ٦٥.
(١١) المصدر نفسه، ص ٨٢.
(١٢) المصدر نفسه، ص ٨٢.
(١٣) الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، عبد الإله الصائغ، ص ١٣٦.
(١٤) الديوان، ص ٨٢.
(١٥) الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، ص ٢٨٠.
(١٦) الديوان، ص ٨٤.
(١٧) الديوان، ص ٨٤.
(١٨) الديوان، ص١٠٥.
(١٩) ينظر: رغدة الزبون، الشَّيب والشَّباب في الشعر الأندلسي، ص ٢١٦ – ٢١٧.
(٢٠) الديوان، ص ٣٦٧.
(٢١) الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، عبد الإله الصائغ، ص ١٤٥.
(٢٢) عيون الأخبار، ابن قتيبة، ٣٢٠/٦.
(٢٣) ينظر: سيكولوجية المسنين، هدى محمد قناوى، ص ٥٦.
(٢٤) الديوان، ص ٢٥٠.
(٢٥) نفسه، ص ١٦٣.
(٢٦) نفسه، ص ١٦٥.
(٢٧) نفسه، ص ١٦٦.
(٢٨) لسان العرب، ابن منظور، مادة شيب، ج ١، ص ٤٩٤.

(٢٩) الديوان، ص ٨٢.
(٣٠) نفسه، ص ٨٣.
(٣١) نفسه، ص ٨٢.
(٣٢) نفسه، ص ١٦٣.
(٣٣) الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، عبدالإله الصائغ، ص ١٤٠.
(٣٤) الديوان، ص ٣٥٧.
(٣٥) العقد الفريد، ابن عبد ربه، ٣١٨/٢.
(٣٦) البيان والتبين، الجاحظ، ٩٦/٢. العقد الفريد، ٣٣١/٢
(٣٧) عيون الأخبار، ابن قتيبة، ٣٢٠/٦.
(٣٨) الديوان، ص ٣٥٧.
(٣٩) نفسه، ص ١٠١ – ١٠٢.
(٤٠) نفسه، ص ٨٤.
(٤١) نفسه، ٨٤.
(٤٢) نفسه، ص ١١٣.